بدلاً من المقدمة

هذه تجربة روحية خالصة .

أو أردت لها بالفعل أن تكون تجربة روحية خالصة :

يقول الله تعالى :

﴿ وأتموا الْحجَّ والْعُمْرةَ للَّه ﴾ (البقرة - ١٩٦) .

﴿ ولِلَّه علَى النَّاس حجُّ الْبَيْتِ منِ اسْتَطَاعَ إِلَيْه سَبِيلاً ومَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين ﴾ (آل عمران - ٩٧) .

﴿ وأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج - ٢٧) .

إلى غير ذلك من الآيات الروحية الخالصة .

* * *

بَيْدَ أن السيرة الروحية - مهما يكن من أثرها - تحدث فى تاريخ وجغرافيا مغايرين لأية فترة سابقة أو لاحقة لها .

إنها التجربة الروحية الخالصة فى القرن الخامس عشر للهجرة النبوية - القرن الحادى والعشرين - ؛ ومن ثم ، تنتمى لهذا الزمان وذاك المكان . .

والحاصل تظل الزيارة - مهما تكن دوافعها - جزءًا من السيرة أو التجربة فى هذا الزمان .

* * *

ولعله من الأوفق أن نصف هذه الرحلة بأنها تجربة روحية لم تستطع أن تخلص ، فى هذا الزمن ، من عبء العصر وثقله العنيف على وجدان الإنسان مهما تكن درجة إيمانه وذوبانه فى التجربة الروحية ؛ خاصة ، وأننى كنت واعيًا أشد الوعى بهذه الرحلة ، فأنا أقوم بها فى السنة الأخيرة من القرن العشرين ، وأعود إليها فى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين ، فأصيغ بعضها فى خاطرات سريعة ، وأنا أسعى فى جميع الحالات إلى إعادة صياغة هذه المشاعر من جديد ، مستعينًا حينًا ببعض الأوراق القليلة التى كتبتها فى حينها ، وبكثير من زخم الخواطر التى ظلت معى كما هى ، أو معى بعدما تغيرت قليلاً أو كثيراً بحكم فوات زمن على التجربة .

وفى جميع الحالات ، حاولت أن أنظر للتجربة (بوعى) لم يسلمنى إليه الذوب الروحى الخالص ، أو أن يرسمنى فى زمرة كُتَّاب الترجمة أو السيرة الذاتية المغلقة بأية حال .

كنت مدركًا خلال هذه الرحلة أنها محاولة روحية تتصل بالذات ، ولكن تجاوزها فى آن معًا ، وعلى هذا أستطيع أن أقول مطمئنًا أن (وعى) صاحب هذه الرحلة هو الذى صيغت به هذه المحاولة ، وليست تفاصيل الرحلة بأية حال سواء الجغرافيا أو التاريخ أو - حتى - محاكاة عشرات الرحلات ، التى قيض لى أن أقرأها أو أتعرفها قبل هذه الرحلة أو بعدها . .

التجربة الواقعية - خارج التجربة الروحية - التى عاش فيها صاحب هذه التجربة سيطرت على عدد من المشاهد ، لقسوتها - قسوة الواقع ومرارته - ولكنها فى التحليل الأخير ، ظل الدافع الذاتى (بالوعى) إليها أكثر ما كان يهيمن علىّ ، ولم أكن لأستطع ، قط ، أن أخلص من ذلك . وهل كنت أستطيع ؟

قد يكون من المهم هنا أن نسرع بالقول بأن التجربة الشخصية لم أستطع أن أخلص منها - كما أشرت - غير أن هذه الفترة الزمنية (بين القرنين الأول الهجرى والخامس عشر الهجرى) . . حين تتلامس مع الواقع الصعب المرير هو الذى أحدث الدافع ، الذى جعلنى أكتب هذه التجربة حين جهدت - أقول جهدت - أن أكون محايداً ومرة أخرى : وهل كنت أستطيع ؟

على أية حال ، سعيت لتحقيق بعض الخطوات :

- تغييرات الواقع الإسلامى .
- تطورات الواقع المعاصر .
- تحولات الوعى الذاتى .
- تحديدات فى الوعى العقيدى .
- مسئولية العلماء وولاة الأمر بل والعامة .
- تكوينات المشهد العمرانى زمنيّاً .

وبين هذا كله ، كان يقيم فى اللاشعور هاجس حائر حول أحوالنا المتردية بخزى ومهانة شديدتين فى بدايات الألفية الثالثة للميلاد خاصة . . وحين أقبل التتار الأنجلو - أمريكى من أقصى الغرب إلى بغداد بوجه أخص . . .

* * *

إن الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى الذى يعيش فيه عالمنا العربى / الإسلامى اليوم يعكس عديداً من البواعث التى أيقظتها هذه الجموع فى هذا الموسم . . فإن الجهاد ضد العدو يظل هو الجهاد الأكبر ، والجهاد ضد النفس الأمّارة بالسوء والاستكانة والضعف والهوان . . هذا كله يظل هو الجهاد الأكبر ، كما جاء فى الحديث الشريف .

ولأن الجهاد هنا يظل - ونحن نستروح كلمات الرسول - ﷺ - وسيلة من وسائل الخلاص ، حيث قال : « **لكل دين رهبانية ، ورهبانية الإسلام الجهاد** » ، كما أنه مؤكد فى حديث آخر قول الرسول ﷺ الحديث الآتى ، الذى يشير إلى تقدمة الجهاد على أى شىء آخر بعد الإيمان بالله ، وهو ما تأكد من القول النبوى .

وقد روى عن ابن مسعود فى هذا الصدد أن الرسول ﷺ سئل :

- أى الأعمال خير ؟

قال : **إيمان بالله ورسوله** .

قيل : ثم أى شىء ؟

قال : **الجهاد سنام العمل** .

قيل : ثم أى شىء ؟

قال : **حج مبرور** .

فالجهاد هنا قمة العمل وأهميته ، ومن ثم ، فإن تلمسه واللجوء إليه هو كل ما تبقى لمن أراد أن يحافظ على القيم الإنسانية ، التى يحيا بها فى هذا العالم .

ورغم أن غلاة المسلمين ورواة الأحاديث قدموا كثيرًا من الاجتهادات فى هذا الصدد . . يظل لهذا الفرض (الحج) أو تلك العمرة (الحج الأصغر) أو الفرض والتطوع قائمًا وذا دلالة حين تغرق الكتب القديمة فى التفرقة وإيراد الأحاديث أو (الحسن أو مطلق الحجية) - كما جاء عن ابن الهمام فى فتح القدير : (٣/ ١٤١) . .

وهو إغراق عانينا منه كثيرًا قديمًا ، وهو إغراق مازلنا نعانى كثيرًا منه ، ونرتشف كثيرًا جديدًا منه فى آنية قديمة ، ثم هو إغراق يعكس الخلافات الوهمية ، التى تحدد علاقاتنا بعضنا ببعض ؛ والتى تغفل أن الجهاد - بعد الإيمان - يؤكد قيمة الجهاد قبل فريضة الحج . .

ها نحن بعد قرابة خمسة عشر قرنًا من مجىء العقيدة الإسلامية وعشرات أو مئات القرون قبلها ؛ ها نحن - لانزال - نعانى الضعف والفرقة أمام عدد من الصهاينة ، جاءوا من الغرب ، أو على الأقل جاءوا بأفكار الغرب العنصرية منذ قرن من الزمان ، ومازالوا يلعبون هذا الدور الشرس المشبوه ضد أمة شرقية لا تتلمس الوعى بوحدة النسيج والاستعانة به لمواجهة الغرب . .

وها نحن فى بداية الألفية الثالثة فى أسوأ حالاتنا عبر التاريخ كله : التخلف الداخلى ، الخلاف الداخلى ، التسلط الداخلى . . ثم يأتينا ها هو العدو الخارجى ، الذى يلعب القسم المشترك بين كل عناصر التخلف . .

صحيح أن الغرب الصليبى (نسبة إلى الحملات الصليبية التى تسمى بها الفرنجة الغربيون) مازال يمزق بلادنا من أقصى الرافدين إلى أقصى سبتة ومليلة ؛ ومازالت هذه (الصليبية . .) ترد فى كتاباتهم وخطبهم كما وجدناه عند بوش الثانى عشية ١١

سبتمبر ، وبتعمد واضح ومقصود ، بيد أن هذا كله يدفع بى هنا إلى العود من حيث بدأت لتحديد طبيعة هذه المحاولة .

* * *

فمع هذا كله أو رغم ذلك كله ، لم أستطع أن أغفل الطابع الذاتى ، وأقصد به الوعى العقيدى ؛ ولعل المزاوجة هنا بين الوعى والوعى العقيدى مقصود تمامًا فى حد ذاته .

العام لم يستطع أن يقلل من الذات .
والخارجى لم يستطع أن يقلل من الداخلى .
إن الرحلة كانت هى السمة الظاهرة .

غير أن السيرة الذاتية لم تكن هى ما أريد تحقيقه بالضبط ، وإن لم أستطع الخلاص منها ، غير أن السياق الأخير يشير إلى أن ما حاولته هنا كان أقرب إلى السيرة العقلية ، التى لم أستطع أن تغرق مع الذات قط ، وإنما كانت أقرب إلى السيرة الروحية الملتزمة بالوعى الإنسانى لا المستغرقة مع الذات الفيزيقية أو الميثولوچية .

وهنا أستطيع أن ألخص ما قلته من أننى كنت واعيًا إلى أن محاولتى هنا ، وإن لم تستطع أن تغفل أو تتغافل الناحية الروحية الخالصة التى تنتج عن الزيارة ، فمن الضرورى أن يتم تعرف هذه الزيارة فى ضوء دائرة لا تتغير ، وإن كانت متحركة ، ولها ثلاثة أقطاب : تغييرات فى المجتمع ، وتغييرات فى مفهوم الفرد ، وتغييرات فى دلائل الرموز الروحية معًا . .

بيد أن أكثر ما حرصت على تأكيده هنا ، أيضًا ، أن هذه الرحلة وإن بدت محاولة لفهم المجهول - لا البحث عنه - فإنها كانت واعية أشد الوعى بأن الرحلة ؛ فريضة / جهاد .

ومن ثم ، فإن الحس الروحى لم يفارقنى قط ، وإن كان الحس العقلى حاول أن يسيطر علىَّ كثيرًا . . .

وأن حس الذكرى حاول ، أن يستحوذ علىَّ حينًا ، غير أن أنياب التجربة لم تغادر عقلى أبدًا .

إنها أنياب الواقع الدامى الردئ . .

إنها فريضة الحج ودلالاتها ، أولاً ، ويأتى بعدها أى شىء .

* * *

وهنا أحب أن أشدد على ملاحظة مهمة ، وهى أن الرحلة إلى الحج لم تتحول هنا إلى نتاج ميثولوچى قط ، وإنما - كما أسهبت - كنت واعيًا أشد ما يكون الوعى لكثير من المشاعر ، وكثير من الحكايات التى كنت أسمعها فى الأرض المقدسة ، وفى كثير من الكتيبات التى كانت توزع كثيرًا ، بالمجان ، فى كثير من المناطق هنا ، فى الأرض المقدسة أو من هناك حيث جئت ببعضها فى أمتعتى ، أو حملت بعضها الآخر فى وعيى .

كما لم يفتنى مراجعة عديد من الرحلات السابقة ، خاصة التى يتعلق الموضوع فيها برحلات الحج ، ومنها : رحلة ابن جبير لأداء فريضة (الحج) ، والكواكبى (أم القرى) وابن بطوطة (رحلة ابن بطوطة) والبتانونى (الرحلة الحجازية) ، فضلاً عن عدد كبير من الرحلات فى العصر الحديث لمحمد حسين هيكل والمازنى ومحمد كامل حتة وبنت الشاطئ وغيرهم . . خاصة عديد من الكُتاب الغربيين ، الذين استطاعوا الإفلات من تقاليد وحواجز كثيرة ، وقاموا بالرحلة لسبب أو لآخر . . بل إننى اطلعت على كثير من مناسك الحج على تنوعها ، وأكثرها موجود الآن فى مكتبة عمر بالمسجد الحرام ، وفى دار الوثائق بالقاهرة أو بعض المكتبات القليلة المتناثرة فى الأراضى المقدسة ، سواء داخل المساجد الكبرى - المسجد النبوى على سبيل المثال - أو خارجها . .

كان الهدف إعادة النظر إلى أغلب ما كتب ، قبل أن أعاود الكتابة ، كيلا أبدأ من فراغ ، رغم أن الأحداث التى مررت بها فى الحقبة الأخيرة إبان زياراتى للأرض المقدسة تغاير - فى كثير - الحقبات السابقة فى التاريخ الإسلامى . .

وهو ما كان يثرى الوعى الكامن فى التجربة الروحية ويحذدها أكثر أو يحاول التعبير عنها بشكل أكثر رحابةً وأكثر دلالة فى آن . .

وفى هذا الصدد ، ربما كان من الأوفق أن أذكر هذه الحكاية ، التى أوردها بيرتون فى رحلته إلى مصر والحجاز ، وهذه الحكاية (وهى معروفة جدًا) تذهب إلى أنه حين

تحاول أن تفسر كلمة « عرفات » وما بها من قداسة فإنها - كما يذهب بيرتون - ومن رواها له من المسلمين - تعود إلى حكاية أقرب إلى الأسطورة منها إلى التفسير الدينى الصحيح ، أو التفسير العلمى للأشياء . . لسنا فى حاجة هنا لإعادة سردها لبعدها عن العقل ، الذى حث عليه الإسلام كثيرًا . . ولكنها القصص والروايات التى تزخر بها الكتب الصفراء والحكايات الميثولوچية ، التى تحشى بها عديداً من المخطوطات القديمة ، كما تحشى بها عقول البشر ، دون التنبه إلى بدهية أن الجهاد يبدأ ويستمر قبل قضاء فريضة الحج ، ويستمر بعدها .

وبقى أن أذكر الإطار الزمنى لهذه التجربة ، فهى ترصد الرحلة لقرابة عامين من الزمان ، حيث تبدأ الرحلة الأولى فى ٢٨ ذى القعدة ١٤٢١ لتصل إلى نهايات شهر رجب من عام ١٤٢٣ . وهى بالطبع كانت تضع فى اعتبارها الفترة السابقة للتجربة واللاحقة لها إبّان الكتابة(*) فى بدايات ٢٠٠٣ ، بما زخرت بها من أحداث جسام عقب عاصفة مانهاتن .

بقى أن نذكر شيئًا عن الكشاف فى نهاية الرحلة . .

فمن خلال هذا الكشاف حرصنا على توثيق (الآيات القرآنية والأحاديث النبوية) حسب إيرادها فى صفحات الكتاب وكذلك الصور ؛ لأن كاتب هذه السطور رتبها وفقًا لبرنامج الرحلة ثم عاد وأورد المفاهيم والمصطلحات الدينية والفلسفية والصوفية موثقة توثيقًا مدعومًا بشروح ميسرة وتراجم مصغرة قد تم إسقاطها عمداً لأنها لم تكن داخل إطار الهدف الذى وضع من أجله الكتاب .

كما آثر أن يشق على نفسه فقام بهذه المهمة الشاقة إيمانًا بدوره فى التوثيق لذاكرة الأمة ، كما زخر الكتاب بالكثير من المصطلحات الفلسفية والصوفية ، ولأنها من

(*) الجدير بالذكر هنا أننا استفدنا هنا برحلات سابقة للأراضى المقدسة ، فى نهاية الثمانينيات ، خاصة ، وقد عدت إلى أوراق كثيرة كنت قد دونتها من قبل ، وأفدت منها إبان كتابة هذا الكتاب الآن ، وأشرت هنا - بين المفارقة والمقارنة - إلى حصاد الرؤية الزمنية بين رحلات سابقة ورحلات لاحقة . . وبذلك تكون الرحلة إلى (جسر الجمرات) استمرت لفترات متقطعة عبر أربع عشرة سنة . . كنت واعيًا فيها إلى هذا الواقع ودلالاته . .

نسيج الوعى الذاتى وقد يشق على القارئ فهمها ؛ ارتأينا أن نضع تفسيراً لها يتوافق مع نسيج النص وسياقاته ورؤية صاحبه .

وخلافًا للقاعدة المتبعة فى الأبجدة فضلنا إيراد الرموز الغربية والأمريكية تبعًا لترتيب الصفحات نظرًا لمعجميتها وكشكل مغاير كسرًا للمؤلف .

وبعد . . هذه محاولة لفهم التجربة ، وهى وإن تكن تقوم على الحس الروحى ، فإنها تظل جزءًا من التجربة الذاتية ، تعبر عنها بشكل مغاير ، وإن تكن تصب - فى التحليل الأخير - فى إطار الكتابة الذاتية - لا أقول السيرة - الروحية الواعية(*) .

وعلى أية حال ، قد يكون من المفيد أن أعود إلى الرحلة الأخيرة قبل أن تتراكم الصور والمشاهد فى خلفية الرحلة لنعيد - خلالها - إعادة الصياغة للوصول عبر محطات التاريخ ، والمشاهد ، وأرجو الله أن أكون وفقت إلى ذلك . .

فلنعد إلى الرحلة الأخيرة ، قبل أن أعود - إلى الرحلة كلها عبر الصور والمشاهد والفالاش باك . . إلى غير ذلك . . لنشر - إذًا - إلى الرحلة الأولى هنا ، قبل أن نعود القهقرى إلى الوراء .

مصطفى عبد الغنى

١٤٢٣ - ٢٠٠٣

(*) هذه المحاولة تظل جزءًا من محاولات أخرى ، تحاول أن تعبر عن الهم العام عبر الهم الذاتى ، وتتخذ أشكالاً كثيرة لتبلور الأشكال الفنية عبر شكل عام ، وقد يكون من المهم أنها جزء من تجربة الكاتب بشكل غير مباشر : فى (كل) ما يكتب ، ثم أنها تعبير الكاتب بشكل مباشر فى تكوينه الذاتى .

وفى هذا الصدد : فإن (جسر الجمرات) هنا إنما هو ضلع فى مثلث التعبير الذاتى ، يتمثل ضلعاه الآخران فى محاولتين أخريين ، إحداهما عن أدب الرحلة (شرق وغرب) ، والآخر عن السيرة الذاتية (قبل الزهايمر) . .